مكتبة
Telegram Network
2020

أحمد الديب

حكايات بعد النوم

طاغور السكندري

من أي بهاء تولد أغنياته؟

حين رأيته أول مرة أثار ارتباكي، فهو بالنسبة لي عملاق أسمر، يوحي بما يرتبط بالعماليق من عنفوان ومداهمة، ثم إنه صيدليٌ بالدراسة، مما يوحي أيضًا بحدة العقل العلمي وحوافه القاطعة، لكنني ما إن جالسته حتى أحسست برفيف فراشة يَدُفُّ في المكان، وألق ملون يشع قريبًا مني، ولم يكن هناك في المكان وبالقرب مني سوى هذا الصيدلي الشاب الأسمر العملاق، القادم من الإسكندرية العذبة، أحمد الديب، الذي تتناقض كنيته أيضًا مع حقيقته الإنسانية والروحية والثقافية، مخلوقٌ أبعدَ ما يكون عن بطش الافتراس، وإن كان شجاعًا ونقيًا في صدقه، وهو إلى كل ذلك بالغَ الرقَّة، وكيان ثقافي مفعم بالجمال ومشع به، فهل لكل ذلك علاقة بكتاباته؟

قطعًا لذلك كله علاقة بكتاباته، طبقًا لقناعة أومن بها أن «حياة الكاتب هي أفضل تعليق على كتاباته. وكتاباته هي أفضل تعليق على حياته»، وما حياتنا إلا نتاج تكويننا الماثل في الأعماق، والمُتجلِّي في تفاعلاتنا مع العالم من حولنا، هذه هي حياتنا.

ومخلوق مثل أحمد الديب من المنطقي جدًا أن يتجلى بكتابة قوية ورقيقة وجميلة وصادقة حتمًا، بل استثنائية، فاجأتني بعد أن تعرفت عليها تباعًا، نَصًا من بعد نَص، على مدى شهور طوال، ثم كانت المفاجأة وأنا أعيد قراءتها دفعة واحدة، فقد راحت تعبُر بذاتها وبي إلى الامتحان الأهم لأي كتابة، وهي قدرتها على تجديد إدهاش قارئها كلما جدد قراءتها، وقد اندهشت، وأرجح أنني سأظل أندهش كلما عاودت قراءة هذه النصوص. فأيُّ سرٍّ في هذه الكتابة؟

هذا السؤال أزعجني كثيرًا وأنا أعيد قراءة هذه النصوص البديعة لأكتب كلمتين عنها، بل وعطلني طويلًا عن هذه الكتابة، فكلما عاودت القراءة أجدني عازفًا عن أن أخُطّ كلمة، لسبب وَضَح لي مع الوقت، هو أنك عندما تصادف الجمال تحب أن تعيشه وتمتزج به، لا أن تحلل مكوناته لتصل إلى سر تركيبِه، وهذه نصوص فائقة الجمال كلما عاودت قراءتها تغمرني النشوة، وأخرج من زحام وضوضاء العالم الفظّ الذي يُثقلنا، خاصة في الفترة الأخيرة، وأُحَلِّق وأدور نشوان في فلك عالم من البهاء والنقاء والرحمة، وهو عالم حقيقي تمامًا لا اختلاق رومانسي فيه، بل تعقُّب واقعي

لعاشقٍ متسامٍ يكافئُه إخلاصه برؤية الحقائق البهية الخافية عن مبتذل العيون، فيما هو يقتفي أثر ما يشغفه من الكون والكائنات. فأيٌّ سحرٍ في هذه الكتابة؟

سؤال ما كنت أود أن أتحمل وِزرَه، في رحلة قراءة تحملني إلى الذهاب بعيدًا وعميقًا في الإحساس بالعَالم لا مجردَّ فهمه، وأظن أن الإحساس الذي ينطوي على حدس هو أعلى من كل فهم، ومع ذلك، ومطاوعة أليمة للسائر من أمور المقدمات، دون استسلامٍ كثير لتراثها، سأحاول الإجابة عن السؤال دون أن أضيع حقي في الانتشاء بهذه النصوص كلما عاودت قراءتها، وهي مغرية بمعاودة القراءة، لماذا هي مغرية بمعاودة القراءة؟ وجدتني أوجه لنفسي السؤال فلا أسعى للإجابة عنه، بل أذهب بخاطري إلى نصوص أخرى أحب معاودة قراءتها كلما ضاق بي هذا العالم مزدحم الصخب والخشونة والقسوة، وتوالت الأسماء والأصداء والكتب، وإذ بي أتوقف عند طاغور، وبالتحديد أغنياته، فأعاود قراءتها، وإذ بوميض السحر في أغنيات طاغور يضيء لي كُنه السحر في نصوص أحمد الديب القصصية، التي هي أيضا أغنيات، ليست كأي أغنيات.

يقول طاغور في أغنيةٍ محوريةٍ من أغنياته:

«سماء ملأى بالنجوم والشمس

وهذي الأرض تنبض بالحياة

وبين كل هذا، أنا أيضًا لقيت مكاني

من هذا البهاء تولد أغنيتي»

ظل هذا المقطع «من هذا البهاء تولد أغنيتي» يتردد في أغنية طاغور وتترجع أصداؤه في نفسي، فأُلامسُ عَبْرَه كُنه السحر في نصوص أحمد الديب القصصية، التي لا تقل أبدًا في رقيها وتحليقها وعبقها عن أغنيات طاغور، وتوازي بدقة النثر ونصوعه علو السبك الشعري عند شاعر الهند الكبير، ثم يأتي المشترك الأعظم بين طاغور الهندي، وطاغورنا السكندري، والذي أحس أن فيه سر السحر. إنه إدراك روح الكون والكائنات.

من هذا الانجذاب بالروح إلى روح الكون والكائنات يولد سحر أغنيات طاغور الهندي، وسحر نصوص أحمد الديب، فأحمد الجميل يقدم لنا كل ما يكتب عنه شفيفًا فنرى وميض روحه، للَّون عنده روح، وللفراشة، ولنجمة البحر، ومروق

القطار، وابن الحداد، واللافتات، والحجر، وللخطوات، والليل والفجر، ولكل ما كتب عنه طاغورنا السكندري روح. وأرجِّح أنه من هذا المدى وصل إلى سر السحر الذي يعيد به تقديم مفردات الوجود الماديّ لنا. فنكتشف أننا أحياء نحلق في مدارات أفلاكٍ حية، فنحب الحياة، ونحِنُّ إلى الحياة.

مرحبًا بأحمد الديب، طاغور السكندري، قيثارة إبداع جميل، تُحلِّق مع شدوها أرواحنا، فنستعيد بعضًا مما يسرقه هذا العالم من أرواحنا. ونصير أفضل وأكثر استعدادًا للأجمل.

محمد المخزنجي

القاهرة في ١٢/ ١٢/ ٢٠١٢

إلى الله.. الأول والآخر

ثم إلى أول من رأى هذه الحكايات، حتى قبل الكتابة.

وإلى آخر من يراها، حتى بعد الرحيل.

أحمد الديب

٢٢/ ٠٢/ ٢٠١٢

حكايات بعد النوم

الفراشات

في العصور القديمة لم تكن الفراشات تظهر لكل الناس، لكنه كان يراها بوضوح معظم الوقت. وفي الأوقات التي لا تظهر فيها كان يستطيع أن يشعر برفرفة أجنحتها الملونة في قلبه الصغير. كان يُحدِّث الآخرين عنها طوال النهار لكنهم لم يعيروا حديثه اهتمامًا كبيرًا. في الليل كان يحلم بها وهي تطير عاليًا إلى القمر الفضي العملاق الذي يتوسط السماء الحالكة.

اندهش كثيرًا ذلك اليوم عندما اقتربت منه فراشة تتألق بألف لون ونادته باسمه. قالت له إنها تعلم أنه يستطيع رؤيتها لأنها ترى أن عينيه تتبعانها في كل مكان. قالت له لا يستطيع رؤية الفراشات إلا مَن كان لديه قلب حقيقي، سألها:

«أنتُنَّ جميلات حقًا. لماذا لا تظهرْنَ لكل الناس ليشاهدوا جمالكُن؟ عندها ستصير قلوبهم حقيقية بالتأكيد». طبعَت قُبلة على إصبعه وسألته:

«هل تذكر قلبك عندما رأيت أول فراشة؟»

وحرَّكت جناحيها مرتين ثم طارت مبتعدة بتلك الطريقة التي تحب الفراشات أن تطير بها.

عند بستان التفاح توقف الأصفر أخيرًا طلبًا لبعض الراحة. تأمل الثمار التي نضجت على أشجارها وفكر:

«يا لجاذبية لونها الأحمر! لكنني أعرف أنني لست أحمرَ ولن أكون كذلك أبدًا».

ونظر إلى الأشجار العملاقة وأوراقها التي تحركها الرياح وفكر:

«اللون الأخضر مريحٌ للغاية. لكن الأخضر ليس أنا. أعرف ذلك تمامًا».

وراقب السماء التي التقت بالأرض عند الأفق وفكر:

«زرقتها صافية خلَّابة. لكنني أعرف أنها لا تشبهني في شيء».

فكر – مهمومًا – في أنه ليس أحمرَ أو أخضرَ أو أزرق. فكر في أنه لم يعرف حتى الآن إلى أين تنتهي به رحلته الطويلة. أخذ يفكر حتى لامس النوم أجفانه. في غفلته القصيرة رأى الشمس الصفراء الكبيرة تبتسم له. تشير إلى أرض ممتدة بها ملايين من سنابل القمح الصغيرة الخضراء، وتقول:

«اليوم تنتهي رحلتك. تحتاج إليك سنابل القمح لتُنهي رحلتها هي الأخرى. طالما عرفت أنك أنت الأصفر، واليوم تتأكد».

عندما استيقظ وجد الرياح تحمله في رفق إلى حيث السنابل التي كانت تكتسي على الفور بلونه عندما يمر من فوقها. وعندما صارت آخر سنبلة صفراء كالذهب، أغمض عينيه مبتسمًا وترك نفسه للرياح التي تغيّر اتجاهها لتحمله إلى أعلى.

***

حتى اليوم، يزعم من يدقق الإنصات أن سنابل القمح الصفراء تتمايل – عندما تداعبها النسمات – هامسةً:

«أصـ.. ـفر.. أصـ.. ـفر.».

استيقظت الشجرة العجوز ذلك الصباح لتجد ياسمينةً بيضاء قد تفتحت.

قالت وردة حمراء كانت قد تفتحت منذ يومين:

«يا للياسمينة الساذجة! تبتسم في تفاؤل من لا يعرف شيئًا عن هذه الدنيا».

ردت الياسمينة:

«ولِمَ لا أبتسم؟ العالم الجميل ينتظرني، وهذه الشمس الكبيرة قد أشرقت لترحب بي».

سألت الوردة:

«ولِمَ تهتم الشمس بك؟ لستِ فريدة في شيء. حتى شروق الشمس ليس بالأمر الفريد، فهو يتكرر كل يوم».

ردت الياسمينة.

«أنا أرى أنني جميلة. ألا ترين أنني أكثر بياضًا من السحب البعيدة في السماء؟»

قالت الوردة:

«لو كنتِ مثقفة لعلمتِ أن لوني الأحمر هو أروع الألوان. وأن الورد بالتأكيد أجمل من الياسمين».

تابعت الشجرة العجوز نقاشهما الطويل الذي استمر حتى ظَهر الهلال في طرف السماء. نظرت إليه الشجرة – كعادتها – في صمتٍ طويلٍ منتظرةً أن يبدأ الحديث معها، فقد كانت متأكدة من أنه ينظر إليها هي بالذات.

بعد أيام كانت الشجرة في مكانها تنظر إلى البدر الذي اكتمل تمامًا. لم تنتظر الشجرة أبدًا أن يكلمها. طالما بدا منهمكًا في توزيع فضته على الموجودات. اعتقدت أنه مشغول حتى أنه لن يهتم كثيرًا عندما يأتي اليوم الذي لن يراها فيه في مكانها المعتاد.

نظرت الشجرة – كأنما تذكرت شيئًا – إلى الأرض، حيث رقدت الوريقات البنية الذابلة التي لم تكن تعرف على وجه اليقين إن كانت من الياسمين الأبيض أم من الورد الأحمر.

في غرفة الطفل، وفي داخل ساعة الحائط القديمة، عاشت عقارب الساعة السوداء.

كان عقرب الساعات هو الأكبر، ربما لذلك كان يعتقد أنه أكثر العقارب حكمةً. كان يردد دائمًا:

«سَمَّانا الناس بالعقارب بسببي أنا! فأنا أتحرك ببطءٍ شديدٍ قد يوحي لضعيف الملاحظة بأنني لا أتحرك، وعندما يسرقه الوقت يشعر - بعد فوات الأوان - بلدغتي القاتلة التي تشبه لدغة العقرب الحقيقي. وكلكم تعرفون أنني أنا الأهم بالنسبة للطفل، فأنا الذي أحدد مواعيد استيقاظه ونومه».

وكان عقرب الثواني النشيط - الذي يجيد إظهار التواضع - يردد في سرعة:

«تك! تك! لا أعتقد أنه من الصواب أن نضيع وقتنا في التساؤل عن العقرب الأهم، لكن من المفيد أن نعرف أنه لولا نشاطي المستمر لما تحركت باقي العقارب. كما أن الطفل لا ينظر قَطّ إلى الساعة إلا ليراقب حركتي أنا. فباقي العقارب بالنسبة له مملة لأنها لا تتحرك. تك! تك!».

لم يكن عقرب الدقائق ممن يثقون كثيرًا في أنفسهم، لكنه كان يردد – كلما احتدم النقاش بين العقارب – نشيدًا أَلَّفهُ بنفسه:

«لستُ كبيرًا.. لستُ صغيرًا.. لستُ طويلًا.. لستُ قصيرًا».

فكَّر ذات مرة أن يضيف إلى النشيد كلامًا يوضح به أنه دقيق ومنتظم، لكنه تذكر أن كل عقارب الساعة دقيقة ومنتظمة فعدَل عن رأيه. في الحقيقة كان مقتنعًا بأنه أقل العقارب أهمية. وأن الساعة كانت ستستمر في عملها الدقيق لو لم يكن موجودًا، لكنه لم يصرح بخواطره تلك لأحد، بل اكتفى بالقول بأنه هو الذي كان يعلم الطفل معنى أن تكون وَسَطًا في كل شيء.

ظل الجدال دائرًا بين عقارب الساعة وقتًا طويلًا جدًا، حتى أنه لم ينتهِ إلا في ذلك اليوم الذي تعطّلت فيه الساعة عن العمل لسبب لم تعرفه العقارب. في هذا اليوم أيضًا قرر والدا الطفل أن الوقت قد حان لاستبدال تلك الساعة القديمة.

في اليوم التالي لاحظ الطفل الساعة الجديدة التي لم يكن لها عقارب. فقط كان لها شاشة زجاجية تعرض أرقامًا مضيئة.

لم يَدُم وقوفه أمام الساعة الجديدة طويلًا، فقد مشى كعادته إلى النافذة المفتوحة التي ظهر من خلفها العالم الكبير الذي تتبدل ألوانه وأصواته في كل لحظة.

ابن الحداد

في قرية الحدادين وُلد الفتى.

كان والده من أمهر صانعي السيوف في القرية، وقد أخبره مرارًا أن أكثر الحدادين ثراءً هم صانعو السيوف، فلا شيء يعتقد الناس أنه يستحق نقودهم أكثر من سيف بتَّار لامع صنع بمهارة فائقة.

لكن الفتى قال لأبيه يومًا إنه لا يريد أن يصنع سيوفًا. رد الأب:

«ذلك أمر غريب! فالناس في حاجة دائمة إلى السيوف من أجل حروبهم التي لا تنتهي. وفي فترات سِلمهم المتقطعة يشترون السيوف الجيدة استعدادًا لمعركة قد تبدأ في أي وقت. لكن ربما لا تكون ماهرًا بما يكفي لكي تصنع سيفًا. فلم لا تجرب صناعة أواني الطعام؟ فالناس في هذا الزمان شديدو الطلب عليها، كما أنهم لا يهتمون بإتقان صَنعتها اهتمامهم بما سوف يُطهى فيها».

قال الفتى إنه لا يريد أن يقضي حياته بين الأواني كذلك.

رد الأب:

«بالتأكيد أنت تجهل تمامًا أين مصلحتك. دعني إذًا أرسلك إلى صديقي صانع الأقفال لتتعلم على يديه. فقد تزايدت حاجة الناس إلى اقتناء الأقفال، ولئن أتقنت صناعتها سيصير زبائنك من الأثرياء ذوي القوة».

قال الفتى:

«ولكنني لا أريد ذلك أيضًا. في الحقيقة يا والدي أنا لا أريد أن أكون حدادًا».

سأله الأب بدهشة بالغة:

«إذًا ماذا تريد أن تكون وقد وُلدت في قرية الحدادين؟!»

أجابه الفتى:

«لستُ أعرف الآن. لم أكتشف ذلك بعد. لكنني كلما أغمضتُ عينيَّ رأيتُ شجرةً عملاقة لها أزهار بيضاء».

***

في الواحة البعيدة همس الراعي لأغنامه:

«قبل سنين عديدة كانت هذه الواحة قطعة من الصحراء الواسعة. كان ذلك قبل أن يأتي الرجل الصالح. يقول الأجداد إن كل تلك العيون قد تفجَّرَت من ذات البقعة التي مات فيها».

قال ذلك وهو يشير بيده إلى تلك الربوة الصغيرة التي توسّطت عيون الماء، حيث وقفت الشجرة العملاقة ذات الأزهار البيضاء.

لم يكن سُكّان الغابة يتهامسون عن جنون السنجاب قبل ذلك اليوم الذي رأى فيه الفراشة لأول مرة.

لم يكن قد رأى فراشة من قبل، ربما لأن الفراشات لم تسكن تلك الغابة قط. فقط كان هناك دائمًا الكثير من الخنافس والديدان والضفادع والجرذان.

عندما رآها ترفرف عاليًا بين الأشجار فكر في أن الفراشات في الحقيقة أجمل ألف مرة من كل ما يقال عنها. أشار إليها وصاح بأعلى صوت يمكن لسنجاب صغير أن يُصدره: «فراشة!»

لم تكن الفراشة تعرف تحديدًا ما الذي أتى بها إلى تلك الغابة، لكنها سمعت صيحته فاقتربت منه وتأملته طويلًا ثم قالت بلغة الفراشات التي فهمها السنجاب بسهولة:

«انظر إلى نفسك! ما أجملك! لكن لماذا أنت هنا؟»

لم يرد لأنه كان مأخوذًا بجمالها، كما أنه لم يعرف إجابة أكيدة لمثل ذلك السؤال. أما هي فقد سكتت قليلًا وفكرت:

«ولماذا أنا هنا؟»

ثم ابتسمت له ورفرفت بجناحيها محلقة إلى الأعلى حتى اختفت عن عينيه المتسائلتين.

مرت أيام عديدة وهو يفكر في الفراشة وسؤالها. كان لقاؤهما شديد الغرابة، لذا ظن أنه لم يحدث إلا في خياله. لكنه ذات ليلة رأى ما يشبه مجموعة كاملة من النجوم تتحرك معًا في السماء. أدرك بعد لحظات أن ذلك ليس إلا انعكاسات نور القمر الفضي على جناحين شفافين يخفقان في الظلام. قال هامسًا: «الفراشة!»

عندما اقتربت الفراشة قالت في قلق شديد:

«الظل. إنه يقترب من غابتكم. وهو ليس كالظلال. إنه حي يفكر. ولا يريد سوى النمو بالتهام المزيد من هذا العالم».

نظر إليها السنجاب خائفًا. فقد كان قد رأى شيئًا كهذا في منامه أكثر من مرة.

«غير أن هناك دومًا ما يمكن عمله. إن أتاكم الظل – وسوف يفعل قريبًا – فاحملوا جميعًا المشاعل. ولينشر كل منكم النور في مكانه. بتلك الطريقة فقط يمكنكم أن توقفوا مَدَّه».

لم تبتسم الفراشة هذه المرة. فقط نظرت في عينيه وقالت: «أنت». ثم طارت مبتعدة في سرعة.

يوم أتى الظل تأكد السنجاب من أنه لم يكن كالظلال! ففي صباح ذلك اليوم بدا الظل في الأفق وقد حجب نور الشمس. كان يقترب، وكلما اقترب بدت تلك الأصوات أكثر ضجيجًا. مزيج مخيف لا يتوقف من آلاف الصرخات والطرقات المعدنية.

أسرع السنجاب إلى شجرته مذعورًا ليرى الفراشة في انتظاره. كانت في حالة إعياء شديد، لكنها رفرفت بجناحيها لما رأته وقالت:

«قد جاء اليوم! أَعلم أنك أنذرتَ سكان الغابة مرارًا. وأنهم قد اتهموك بالجنون. قالوا إن الظل هو كابوسك الوهمي، وأنني من نسج خيالك. هم الآن يحاولون الهرب

إلى الغابة المجاورة. لم يدركوا بعد أن الظل سيلتهمهم الآن أو بعد لحظات. لقد انتصر الظل عليهم».

تساءل السنجاب وعيناه الصافيتان تدمعان:

«إذًا فنحن الآن لا نملك عمل أي شيء؟»

حرَّكت جناحيها مرتين وهي تقول:

«بل نملك شعلتين، وما هو أكبر! فهل تأتي معي؟»

قبض السنجاب على شعلته وفكر:

«من أجل ما هو أكبر!»

ثم اندفع خلف الفراشة إلى الخارج، إلى حيث الظل.

سعة البحر مخيفة أحيانًا، وبرودة قاعِه مزعجة دائمًا، وزُرقة أعماقه تبعث الرهبة في أشجع النفوس.

هكذا كان يشعر الحَبَّار الصغير الذي كان يبدو مختلفًا حتى بالنسبة لحبار! فقد كان جسده اللين ناصع البياض إلى درجة أنك لو رأيتَه من بعيد لحسبته نجمة لامعة هبطت من السماء لتسبح وحيدة في ظلام المحيط.

ربما لذلك السبب ترسَّخ في اعتقاد الجميع أنه هو بالذات مُعَرَّض للخطر أكثر من أي حبار آخر. فبياضه الأخَّاذ هذا سيجذب إليه عيون أعدائه لا محالة، وما أكثر أعداء الحبار! هكذا علَّموه، وهكذا تعلَّم. علموه أيضًا أن لديه طُرُقًا عجيبة للهروب من أعدائه. فباستطاعته – إن استشعر خطرًا حقيقيًا – أن يقذف حبرًا أسود يصبغ الماء حوله على الفور، فيعجز المهاجم عن رؤيته لفترة تسمح له بأن يسبح مسرعًا إلى الخلف بتلك الطريقة التي تبدو غريبة تمامًا لأي مخلوق آخر يشاهدها، إلا إنها كانت تبدو طبيعية تمامًا بالنسبة لحبار.

ذات مرة رأى سمكة من تلك الأسماك البرتقالية ذات الخطوط البيضاء والتي يطلقون عليها اسم «المُهرِّج». فكر أن الاسم يناسبها تمامًا، لأنه رأى أن تلك السمكة كانت سخيفة إلى أقصى حد. فقد استفزه لونها الفاقع، كما أنها كانت تتحرك إلى الأمام لا إلى الخلف. ما جعل الأمر لا يُحتمل هو أنها أخذت تدور حوله وتتأمله بعينيها الثابتتين، ثم أطلقت فقاعتي هواء نحوه كما تفعل الأسماك عادة إذا أرادت أن تبدأ حديثًا. لكنه لم يكن يعرف إلا القليل جدًا من لغة الأسماك، لذا فقد انزعج بشدة من اقترابها الذي بدا له مخيفًا غير مبرر، وقرر أن ينهي ذلك الموقف السخيف بإطلاق حبره الأسود.

تذكّر تلك الحادثة عندما كان يجول قريبًا من صخرة على القاع، ورأى صَدَفة كبيرة جلس فوقها مخلوق رائع الجمال. اقترب في حذره المعتاد ليتحسّسه بأقدامه – نعم، فهذه هي طريقة الحبار في التعبير عن الإعجاب الشديد – لكنه سمع طقطقة خافتة من أسفل الصدفة التي اهتزت قليلًا، فتراجع فورًا في ذعر.

رأى – مندهشًا – أشياء غريبة تخرج ببطء شديد من أسفل الصدفة، وسمع من يقول: «لا تقترب أكثر! إنه يلسع. ولسعته مؤلمة».

لم يتحرك الحبار ولم يقل شيئًا. فقد كان يُفضّل أن يخبره الآخرون بكل ما لديهم أولًا.

تابع الصوت:

«يسمونها شقائق النعمان. ومشكلتها الحقيقية أن شكلها أكثر براءةً من اسمها! لكنها صديقتي على كل حال وأنا أحبها، فهي تحميني من المتطفلين. لا أقصدك بالطبع، فأنا لا أرى شرًّا في عينيك».

ازداد توجُّس الحبار، فصاحِبُ الصوت هذا يقول الآن إنه يراه، وهو لم يكن يحب أن يراه أحد.

تكلم الحبار أخيرًا، وقد كان كلامه – كالعادة – سؤالًا. وأسئلة الحبار لا تزيد في طولها عن كلمتين أو ثلاثة:

– «ما أنت؟»

– «أنا سرطان. يسمونني بالناسك لأنني لا أخرج من صدفتي هذه إلا حين تضيق بي. لكنني لا أجده اسمًا مناسبًا كذلك. فأنا في الحقيقة لا أخرج لأنني ضعيف.

ولأنه لا أحد يحب رؤيتي. فأنا لست جميلًا كشقائق النعمان. لستُ جميلًا على الإطلاق».

- «ولماذا أنت معها؟»

- «هي قصة طويلة. على كل حال يمكن أن تقول إن صداقة حقيقية تربطنا».

لم يفهم الحبار تمامًا كيف تكون هناك صداقة حقيقية بين الجميل القوي والقبيح الضعيف، لكنه سأل سؤالا آخر بدافع الفضول، فقد كان يريد أن يرى بنفسه مدى قبح هذا السرطان:

- «ممكن أن تخرج؟»

- «هل أنت جاد؟ تريد أن تراني؟ لكنك لن تسعد برؤيتي. لم يسعد أحد برؤيتي قَطُّ إلا صديقتي شقائق النعمان. لكني أشعر أنك طيب لذا سأخرج حالًا».

اقترب الحبار قليلًا ليتمكن من الرؤية. رأى الصَدَفة تتحرك فجأة إلى أعلى. ومن تحتها خرجت أقدام السرطان بطولها الكامل الذي أفزعه، ثم انتفضت الصَدَفة وأطَلَّ السرطان بأكمله خارجًا منها.

هنا رأى كُلَّابين كبيرين رفعهما السرطان عاليًا وأخذ يُحرِّكهما - وهي طريقة السرطان في تقديم التحية بالطبع - رأى السرطان يجري نحوه بطريقة عجيبة للغاية. أصابه رعب شديد، ودون أن يشعر بدأ في إطلاق دفقات عديدة من الحبر إلى أن أصبح هو نفسه عاجزًا تمامًا عن الرؤية. هنا شعر بتيار عنيف من الماء يندفع بجواره تمامًا. خطر له خاطر مخيف لم يتأكد من صحته إلا عندما شعر بالأسنان الحادة لتلك السمكة الفضية الكبيرة - التي كان يراها تقف بعيدًا في هدوء طوال الوقت - وهي تمزِّق جسده اللين ناصعَ البياض.

كان الولد ذو البشرة المائلة قليلًا إلى الزرقة يذهب إلى المدرسة الصغيرة القريبة من البحر، وكان يرى أن أيام المدرسة كلها متشابهة إلا اليوم الأول واليوم الأخير وذلك اليوم الذي حكى فيه المدرس للأولاد حكاية «العجوز والبحر».

كان في تلك الحكاية شيئًا جعله غير قادر على الكلام، مع ذلك فقد بدأ باقي الأولاد في الكلام فور انتهاء المدرس.

قال الولد ذو النظارة: «هذه قصة جيدة، فبها الكثير من الكلمات الجديدة التي لم أكن أعرفها».

وقال الولد ذهبي الشعر: «كان للعجوز قارب واحد، وأنا سيصير لي كل القوارب في العالم لأصطاد كل السمك في كل البحار».

صاحت البنت ذات الحذاء الأحمر اللامع: «لكنني لا أحب السمك!».

وسألت البنت ذات الثوب الرمادي: «هل هي قصة خيالية أم أنها حدثت فعلًا؟ أبي يقول إن الخيال كَذِب، وأنه لا يجب أن نصغي إلا لما يحدث في الواقع».

وأضاف الولد الضخم: «ولا يجب أن نصغي إلى الحكايات المملة كذلك! لم أسمع في حياتي قصة أقل إثارة من تلك!»

واستمر الأولاد في الكلام إلى نهاية اليوم، لكنه لم يقل أي شيء. حتى بعد أن انتهى اليوم ومضى عائدًا إلى بيته الصغير لم يتكلم. فقط كان يمشي بجوار البحر ويتأمله في صمت. فكر في أن ذلك البحر لم تكن له زرقة البحار التي يراها في الصور، بل كان رائقًا شفافًا إلى درجة أنه كان يستطيع تمييز ألوان حبات الرمال المختلفة النائمة على القاع.

«منذ متى - يا ترى - ترقد حبات الرمال ها هنا؟ وهل كانت دومًا على هذا الشكل؟ وهل ستصير كذلك إلى الأبد؟ لماذا لا تتقدم الرمال في العمر مثلنا؟ وهل ستظل هذه الحبات هنا إلى أن أصير عجوزًا كالرجل في الحكاية؟».

هكذا فكر الولد وهو ينظر في المياه التي لم يُكدِّر استواء سطحها سوى بضع قطرات من دموعه تساقطت دون أن يدري.

في الأيام التالية كان الجميع - حتى المدرس - قد نسوا كل شيء عن القصة. لكن الولد كان يذكرها في كل يوم في طريق ذهابه وفي طريق عودته. يتمهل قليلًا

ليتأمل البحر، وتسافر عيناه إلى أماكن لم يَرَها قَطّ، فتتساقط دموعه لتلتحم بالبحر إلى الأبد.

وتمر السنوات وتتغير معها ملامح الناس والأرواح والأماكن. لكن شيوخ البلدة يقولون إن الولد لم يفقد ارتباطه بالبحر قَطّ، ولم يغير البحر من لون بشرته المائل إلى الزرقة، بل إنهم يزعمون - ولا أحد يعرف السبب يقينًا - أن لون البحر هو الذي تغير حتى صار أكثر زرقةً من كل البحار التي رأوها في الصور.

يقولون إن نجمات البحر تنسى كل شيء إذا خرجت من البحر، لكن نجمة البحر العجوز كانت تحتفظ بذاكرتها. تلك الأيام البعيدة قبل أن تجد نفسها في حوض العرض الزجاجي هذا. الأيام التي كانت تُنادَى فيها باسمها هي، لا باسم «النجمة» الذي لا تحبه.

هكذا كان يناديها سكان الحوض. كانوا يطلقون عليها في البداية اسم «نجمة البحر»، لكنهم اكتشفوا أنه اسم طويل بلا حاجة، كما أن البحر لم يعد موجودًا، فصار اسمها «نجمة». ثم رأت بعض الأسماك التي وُلِدَت في الحوض أنه اسم طويل كذلك، لذا كانوا يدعونها «نج» فقط.

وكانت تكره كل تلك الأسماء، لكنها على كل حال لم تعد تسمع اسمها يتردد كثيرًا، فقد قرر الجميع أنها لم تعد مبهجة لطيفة بعد أن تقدَّمت في العمر وتحوَّل لونها البرتقالي الزاهي إلى لون الرمال الشاحب، كما أنها صارت أكثر ميلًا للاختلاء بنفسها في ركن الحوض الوحيد الذي خلا من النباتات البلاستيكية باهتة الخضرة.

تقول سمكة «الملاك» إن نجمة البحر قد فقدت القدرة على الاستمتاع بالحياة هنا لأنها لم تعد تحب أحدًا. والدليل على ذلك أنها لم تعد تحكي حكاياتها الطريفة لأحد.

وكانت سمكة «القط» تقول: «هي لم تحب أحدًا منذ جاءت إلى هنا. كانت تتظاهر بذلك فقط لتصير محبوبةً بيننا. هي أكثر غرورًا من أن يكون لها صديق!»

والسمكة السوداء العجوز التي لم يكن لها اسم كانت تقول:

«هو خيالها المسموم. نصحْتُها مرارًا بأن تكون أكثر واقعية. كثيرًا ما تكلَّمَت عن ذلك المكان الذي كانت تعيش فيه من قبل، ومياهه الخضراء والزرقاء التي تتغير حرارتها كل ساعة، وأسماكه التي كانت تتحرك في أسراب هائلة، ونباتاته العملاقة التي لا يمكن لحوض أن يحتويها، وصخوره التي كانت تضج بالحياة، كما تزعم. لم تَكُفّ المسكينة عن أحلام اليقظة. نصحتها كثيرًا أن تحاول التكيف مع حياتها هنا لأنها لن ترى ذلك المكان الآخر مرة أخرى، هذا إن كان حقيقيًا ولا أظن ذلك!»

واحدٌ فقط كان يتكلم مع نجمة البحر بدلًا من أن يتكلم عنها، هو حصان البحر الصغير الذي لم يَرَ البحر في عمره قَطّ، لكنه كان يُصدِّق حكاياتها عنه، ويشتاق إلى الحياة في هذا المكان.

كان كلامها يقل مع مرور الوقت، ويزداد اقتضابًا وغموضًا. وكان هو يزداد حبًا لها ولحديثها.

وعندما رآها ذلك اليوم ساكنةً أكثر من المعتاد - وقد بدا أن لونها البرتقالي القديم عاد إليها أخيرًا - فهم أنها عادت هي الأخرى إلى حيث تنتمي.

***

يقولون إن أحصنة البحر تنسى كل شيء إذا فقدت عزيزًا، لكن حصان البحر - الذي صار عجوزًا - كان يذكر جيدًا آخر ما قالته نجمة البحر عندما سألها عن اسمها الحقيقي فأجابته بطريقتها المقتضبة:

«بحر».

كان ذلك البحر أكثر زرقة من كل البحار، وكانت أسماكه شفافة تمامًا كدموع الولد ذي البشرة المائلة قليلًا إلى الزرقة، وكان الولد جالسًا وحده أمام البحر في تلك الليلة، حين انتبه إلى صوت ترقرق على جدران قلبه:

«أبشر أيها الولد. إن مَلك هذا البحر قد عرفك فأحبك، وقد أمَرَنَا بصنع هذا الخاتم لك أنت. لكنه لن يناسبك حتى تناسبه، فاصبر أيها الولد».

وبسَط يمناه فوجد خاتمًا من فضة لم ترَ عينٌ مثلها، فوق سطحه المصقول تبددت ظلمة الليل، وانعكست صورة سماوية لقمر يموت، ونجوم ماتت بالفعل. ورأى النقش المُبهم على الخاتم فانقبض قلبه لكنه لم يعرف السبب. جرَّب أن يضعه حول إصبعه فتأكد له أنه أكبر من أن يناسبه.

لبث أيامًا يسأل البحر: «كيف أناسبه حتى يناسبني؟» فلم يُجِبْه إلا صدى صوته الذي بدا له غريبًا ممطوطًا.

قرر أن يتجه إلى المدينة ليسأل أهلها، فأجابه شيخ لا يَرى: «هناك، في (الحَوافريّة)، قرية الحدّادين. يعرفون كيف يتصرفون مع تلك الأشياء. اتبع الدخان تصِل».

ومضى يتبع الدخان حتى وصل إلى أول نار في القرية، وجد عندها رجلًا أسود الجبهة والكفين، عرض عليه خاتمه وسأله إن كان يستطيع تضييقه، قلّبه الرجل بين أصابعه الغليظة وأجاب: «طبعًا. لكنه ليس من هنا. عليه صورة بُرج حظّ، صَحّ؟ انتظِر هنا.» وغاب الرجل خلف النار بُرهة امتزجت فيها دقات طرق المعدن بدقات قلب الولد، ثم عاد الرجل وألقى بالخاتم في إناء مليء بالماء الكَدِر، وقال: «خمسة وعشرون درهمًا».

نظر الولد إلى خاتمه فلم يعرفه. انقطع تنفسه حينًا وهو يرى ذلك الظل المعدني القاتم الذي أخذ يزحف فوق سطح الفضة. سأل الحدّاد وروحه تتمزق بين الحزن والغضب، فأجابه: «لا أرى ظلالًا، وكل حديد يصدأ في النهاية، صَحّ؟»

أعرض ومضى يضرب الأرض بلا هُدى فلم يوقفه إلا البحر. نظر إلى الخاتم فوجد الظل مستمرًا في التهام الفضة. صوت ناعم غريب أتاه من البحر لكن هدير

الموج حال بينه وبين تمييزه. قبض على الخاتم بيُمناه وألقاه إلى أبعد موجة فهدأ صخب البحر وسكت الصوت الغريب، وفوق دمعته الدافئة - التي تحررت أخيرًا - انعكست صورة سماوية لقمر يُولد، ونجوم لم تُولد بعد.

***

يزعم شيوخ الصيادين أن ذلك البحر كان يومًا أكثر زرقة من كل البحار، وأن أسماكه كانت شفافة تمامًا كزجاج واجهات المتاجر الجديدة في أقصى المدينة. لكن باقي سكان البلدة يعرفون جيدًا أن ذلك البحر ككل البحار، وأن أسماكه - ككل الأسماك - تخرج من البحر بلون الفضة لكنها عندما تصل إلى السوق تكون قد أخذت لون الحديد.

على قمة الجبل العجوز الذي يَعرف – لكنه لا يتكلم كثيرًا – كل حكايات تلك البلاد في أقصى الأرض حيث تستيقظ الشمس أولًا كل يوم، وفي ذلك الزمان الذي كانت الأشجار فيه تُعرف بأسمائها الحقيقية، عاشت (ساكورا) شجرة الكَرَز الصغيرة الوحيدة التي لم تكن تَعرِف عن نفسها غير اسمها.

لم يكن أحد يعرف شيئًا تقريبًا عن أشجار الكرز، فقد كانت (ساكورا) هي شجرة الكرز الأولى التي تعرفها تلك البلاد وربما كل البلاد، ولم يكن بينها وبين الأشجار الأخرى شَبَه كبير لكنها كانت أقرب الموجودات إليها على الأقل، لذا كانت تقضي معظم الوقت في مراقبتها وملاحظة الاختلاف العجيب في أحجامها وأشكالها وألوانها، وكانت الزهور بشكلٍ خاص هي أكثر ما يشغلها، فقد كانت ترى الأشجار تتأوَّد فخرًا في مواسم إزهارها وهي تنشر أطيافًا من العطور الملونة، فتشعر عندئذٍ أن الشجر كله لم يُخلَق إلا من أجل تلك اللحظة.

وكانت الأعوام تمضي وزهور الأشجار الأخرى تولد وتموت وتُبعث من جديد، وأغصان (ساكورا) لا تحمل غير القليل من الأوراق والكثير من الخوف. وكان السؤال الصامت يتمكَّن من قلبها يومًا بعد يوم: «متى يُزهر الكرز؟».

ومرَّت يومًا رياح داعبت مياسم الزهور، ونشرت مزيج عطورها في كل الأنحاء، ففكرت (ساكورا): «هذه الرياح طافت بكل أنواع الزهور، فلعلها تعرف زهور الكرز»، وسألتها حين اقتربت: «أيتها الرياح الطيبة، أخبريني متى يزهر الكرز؟»

دارت الرياح حول أغصانها دورتين، وهمسَت: «لا أعرف في الحقيقة، لكنني أعرف أن الرياح تهب في كل لحظة، لكن الكرز – للأسف – لا يزهر في كل لحظة».

وكانت الشمس تتوهج فتُبَدِّد زرقة السماء، ففكرت (ساكورا): «الشمس تعرف أكثر بالتأكيد، فوجودها ضروري لحياة كل الزهور وكل الأشجار».

وسألتها في أدب: «أيتها الشمس العظيمة، أخبريني متى يزهر الكرز؟»

توهجت الشمس أكثر وقالت: «لا أعرف في الحقيقة، لكنني أعرف أن الشمس تشرق كل يوم، لكن الكرز – للأسف - لا يزهر كل يوم».

وتهادى خرير المياه في النهر القريب، ففكرت (ساكورا): «في الماء سر الحياة كلها، فربما يعرف النهر سر الكرز!».

وسألته وهي تتأمل المياه الرائقة:

«أيها النهر الرحيم، أخبرني متى يزهر الكرز؟»

أبطأ النهر من سرعته قليلًا، وهو يقول: «لا أعرف في الحقيقة، لكنني أعرف أن النهر يفيض كل عام، لكن الكرز – للأسف - لا يزهر كل عام».

وكادت (ساكورا) حينها أن تتيبَّس حزنًا، لولا أنها شعرت بالأرض تهتز من تحتها، وسمعت صوتًا هادرًا يقول: «أنا أعرف شيئًا عن زهور الكرز، فأنا - ككل الجبال - أُولَد مرة واحدة، وأنا - ككل الجبال - أعيش طويلًا جدًا. وزهور الكرز - مثل الجبال - تُولَد مرة واحدة وتعيش طويلًا جدًا، لكنها - غير الجبال - لا تعيش في المكان الذي وُلدَت فيه إلا قليلًا».

تأملت (ساكورا) الهلال الصغير الشاحب الذي ظَهَر فجأة في السماء مكتسيًا بلون وردي غريب، ولم تعرف إذا كانت كلمات الجبل هي التي ألقت في قلبها تلك الرهبة، أم هو مشهد الهلال الوردي الخافت، أم هي تلك الرياح الغريبة التي لم تَزُر قمة الجبل قبل هذه الليلة.

كانت الرياح تحمل عطرًا خفيفًا غير مألوف، أخذ ينتشر مع حركة الهواء، ونظرت (ساكورا) إلى الهلال الذي اكتمل بدرًا منذ لحظات! وشَعَرَت أن النور الوردي يتسرب في عروقها. وعندما امتزج العطر تمامًا بالنور الذي كان قد غمر كل شيء، رأت زهور الكرز تتفتح فوق أغصانها بلون القمر الوردي وعطر الرياح الخفيف.

مرت لحظات تَوَقَّف فيها قلبَ الكون ذاته عن النبض، قبل أن يبدأ القمر في الموت بنفس سرعة نموه، ويخبو عطر الرياح، ويشتد هبوبها فتنتزع زهور الكرز الوليدة وتبعثرها في سواد الليل.

وكانت (ساكورا) تلفظ آخر أنفاسها عندما سألت الجبل في ذهول هامس: «هل ماتت زهوري؟!»

لكن الجبل العجوز - ككل الجبال التي لا تحب الكلام - لم يَرُدّ، رغم أنه كان يرى كل زهور الكرز؛ بعضها يهبط - قبل الفجر بقليل - فوق بيوت القليل من البشر الساهرين، حيث سيحيا إلى الأبد، في قلوبهم نهارًا وفي أحلامهم ليلًا، وبعضها تعود به الرياح إلى قلب السماء، ليصير إلى الأبد نجومًا يستطيع قليل من البشر الآن تمييزها عن النجوم الأخرى بتألقها المضطرب بطيف وردي شاحب، وأكثرها يهبط على الأرض، لتخرج منه كل أشجار الكرز التي يعرفها حتى اليوم كل البشر - في تلك البلاد في أقصى الأرض حيث تنام الشمس أولًا كل يوم - باسمها الحقيقي.

قصص صغيرة

أخيرًا وجد نفسه عند نفس الميدان. جلس على نفس المقعد المخصص لانتظار تلك الحافلة التي لا تصل. وجد نفسه غارقًا في نفس الخواطر الرمادية. هذه المرة فقط انتبه إلى كلمات كُتِبَت بدهان بُنّي اللون وبخط كخطوط الأطفال على زجاج لافتة الإعلان الواقفة إلى يمين المقعد «احذر الشيطان» وتحتها «لا إله إلا الله».

فكَّر قليلًا وابتسم. لم تَعُد لخواطره نفس الدرجة من اللون الرمادي. التفتَ إلى اللافتة الأخرى على يسار المقعد شاعرًا - لسبب ما - أنه سيجد شيئًا. «الحمد لله» بنفس الخط. تَنَهَّد طويلًا واتَّسعت ابتسامته. قرر أن يجرب حظه مرة أخرى، فابتعد بنظره إلى لافتة بعيدة - يعرف مكانها جيدًا - تحمل إعلانًا عن معامل الدكتور فلان. هذه المرة فقط كان عمود الإنارة يحجب أول حرفين من كلمة معامل. نظر إلى كلمة «أمل» طويلًا. صارت خواطره بيضاء تمامًا.

فترة

كان صديقه الأقرب، فقط لأنه كان موجودًا لفترة طويلة.

انطفأت صداقتَهما مع الوقت، فقط لأن الفترة صارت أطول.

فرصة

لَمْ يحبها حقًا، فقط شَعَرَ أنها مناسبة إلى حدٍ كبيرٍ.

لَمْ تحبه يومًا، فقط شَعَرَتْ أنه فرصةٌ لا ينبغي أن تضيع.

الثالثة

رقَّ قلبه عندما رأى جارته العجوز تحمل في كل يد حقيبتين. مضى مسرعًا ليحمل عنها اثنتين. رأى ابنتها الشابة قادمة فمدَّ يده ليحمل الحقيبة الثالثة.

ابتسم الشيطان طويلًا قبل أن يمضي إلى مكان آخر.

قطاران

وحيدًا كان في القطار المتجه جنوبًا. لم يرَ سواها حين مر قطار الشمال العتيق المزدحم. أغمض جفنيه على صورة وجهها المُتبَسِّم.

يقول مَن شهد الحكاية إنه لم يفتحهما حتى توقف القطار.

قال الشاب لمعلمه عَصْرَ ذلك اليوم: «سيدي. أريد أن أصل إلى الحكمة مثلك».

ردَّ المُعلم مبتسمًا: «إذا أردت حقًا أن تصل إلى الحكمة، فعليك أولًا أن تسير حتى تصل إلى الجنوب».

بعد أيام من السير سأل الشاب: «سيِّدي. متى نصل إلى الجنوب؟»

رد المُعلم: «في الحقيقة لم ينجح أحد قط في الوصول إلى الجنوب. نحن أيضًا لن نصل إلى الجنوب أبدًا. أفضل ما يمكننا عمله الآن هو الاستمرار في الاتجاه جنوبًا».

وقف الشاب هنيهة في حيرة، وفكر في بيته المريح، ثم هز رأسه وواصل السير خلف معلمه. في اتجاه الجنوب.

لحظة

تقترب اللحظة. عليه الآن أن يواجه الظروف الأسوأ منذ بَدَأ رحلته الطويلة ضد التيار.

ينتظر. ينظر في عيون أعدائه المتربِّصة. يَتَلَوَّن حلمه متجسدًا في السماء خلف صورة العدو المتموجة. يستنفر كل عضلة في جسده الذي نال منه تقلُّب المكان والزمان. يقفز.

***

ضحك الصياد العجوز وهو يخاطب أحفاده: «اليوم رأيت أكبرها على الإطلاق. رأيتها تطير في الهواء فوق عشيرة كاملة من الدببة قبل أن تهبط في الجهة الأخرى من الشلال. تمنيت أن أستبدلها بكل سمكات السلمون الأصغر التي اصطدتها اليوم!»

تقترب اللحظة. بِحَزْمٍ أشد – هذه المرة – يُردِّد: «ثلاثة. اثنان. واحد. صفر».

لم يطل الصمت قبل أن يُغَمْغِم: «سالب واحد. سالب اثنين. سالب ثلا..».

ليلة بُنّية

هي تكره البُدناء كما تكره اللون البُني. تُفكِّر الآن في حظها السيء وهي تنظر إلى الخاتم الفضي العريض الذي طوَّق إصبعه المكتنز منذ لحظات.

تنتظر - في صمت كالعادة - انتهاء الليلة الصاخبة وهي تتأمل تجاعيد فستان خطوبتها البُني الذي تم الاتفاق عليه.

تهدَّج صوت الإمام وهو يتلو: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ» (الزمر: ٥٣).

لم يتحمل قلبه العجوز وَقْع الكلمات. خرجت دمعتان رغمًا عنه. سكت في خشوع.

سارع الرجل الضخم الواقف في الصف الأول مكملًا في ثبات: «الذُّنُوبَ جَمِيعًا».

قطرات

ارتجف قلبُ الولد عندما رأى النخلة الصغيرة وقد حَطَّم أحدهم إناءها الفُخَّاري وألقى بها على جانب الطريق.

أسرع إلى السبيل القريب وأخذ يسكب الماء في لوعة على جذر النخلة المُحاط بالتراب الذي جفَّ متخذًا شكل الأصيص المكسور.

مع آخر قطرة ماء بدأ الجذر يظهر بين ذرات الطين، لذا كانت الدمعة الأولى هي أول ما شربه الجذر.

بين الأمواج

في تلك الليلة كان نور النجوم كافيًا لأن يرى رمال الشاطئ بوضوح.

أخرج قلمه الرصاص وأخذ يرسم أشكالًا على الرمل الْمُبتَل بماء البحر ورائحة الأزمنة الغابرة. أَخَذَتْه نشوة اللهو فغفل للحظة عن قلمه الذي استدرجته موجة متسللة ليغيب في ظلمة البحر التي استعصت على نور النجوم. أخذ يبحث في يأس بين الأمواج السوداء، ثم أدرك عجزه فجلس مستسلمًا في نفس الموضع الذي فقد فيه قلمه.

تأمل النجوم قليلًا ثم أطرق متابعًا الموجات المتتالية منتظرًا أن تحمل إحداها قلمه إليه. لم يَطُل انتظاره.

على جانب الطريق

كان من الواضح أن تلك الهُريرة ذهبية اللون لم تكن بخير.

كانت راقدة في وسط الطريق تحاول بلا جدوى أن تجرَّ قدميها لتهرب بعيدًا عن عجلات السيارات بعد أن عرفت خطورتها. نظرنا – نحن الثلاثة – إلى بعضنا ثم أسرعنا إليها. حملتُها إلى جانب الطريق ووقفنا نراقبها في صمتٍ عاجزٍ. كانت تحاول التنفس في معاناةٍ شديدة. تجاهد من أجل التقاط نفَس آخر. لحظات مضت قبل أن تتباعد الأنفاس أكثر وتخمد الحركة بالتدريج.

مضيتُ أولًا ثم تبعني الصديقان. سِرْنَا صامتين تمامًا لدقائق حتى قال أحدهما شيئًا. انخرطنا على الفور في حديث مفتعل وكأنما اتفقنا – بلا كلام – على ألا نتكلم.

الرجل عظيم المظهر الذي يعبر الطريق الآن هو السيد (وَاثِق). يَعْرِفُ الجميع أنه من النادر رؤيته ماشيًا على قدميه كسائر البشر. فالرجل – والحق يُقال – مهم، ولا وقت لديه لمثل تلك الممارسات.

ما لا يعرفه الناس هو أنه كان قد قرر اليوم أن يسمح لنفسه بساعة من المشي الهادئ، فهو يعرف جيدًا أن المشي يقلل من نسبة الدهون في الدم فيحمي بذلك عضلة القلب والأوعية الدموية، لذا كان دائمًا ينصح الآخرين بالمشي صباحًا، وقد رأى أنه من المفيد أن يبدأ اليوم في تجربة العمل بنصيحته تلك.

كان من الممكن أن يستمتع بالهدوء أكثر لو لم تقع عيناه – المحتجزتان خلف زجاج نظارته الشمسية الكبيرة – على ذلك الشيخ الذي يمشي ببطءٍ شديد على جانب الطريق قادمًا في الاتجاه المقابل. يرتدي جلبابًا قد غطَّاه التراب والشحم حتى صار من الصعب معرفة لونه.

قال السيد (وَاثِق) لنفسه بصوت كاد أن يكون مسموعًا: «شحاذٌ آخر. بالتأكيد هو شحاذ وإلا لماذا يرميني بتلك النظرة الذليلة؟ يا لوقاحة هؤلاء! يرموننا بنظراتهم

تلك كأننا نحن السبب في معاناتهم. تُرى هل يعرفون أنهم حيوانات لا بشر؟ حيوانات جاهلة كسولة معدومة الحيلة. أنتم هكذا. فَلِمَ لا تموتون وتريحون أعيننا من نظراتكم ومناظركم؟ ثم لماذا يمشي شحاذ في مكان كهذا في وقت كهذا؟ ألن نستريح أبدًا من ذلك الـ..».

هنا تعثر السيد (وَاثِق) في ذلك الحجر الذي بدا وجوده غريبًا في منتصف ذلك الطريق النظيف الممهد. سقط إلى الأرض وجُرِحَت ركبته وغطى التراب مواضع عديدة من ملابسه البيضاء.

قام مسرعًا وهو يلعن الحجر والذي تسبب في وجوده هنا، ونفض التراب من على ملابسه قدر المستطاع، ثم راح يمشي عائدًا إلى بيته بعد أن أفسدت الحادثة شهيته للمشي.

في طريق العودة رأى شيئًا آخر لم يَسُرّه. امرأة تغطي جسدها ورأسها بالسواد تجلس على جانب الطريق مطرقةً في سكون، وقد وضعت أمامها ورقة تمددت فوقها بعض حبات الحلوى وأكياس المناديل الورقية.

فَكَّر في غيظ: «تضع المناديل والحلوى أمامها كأنها تبيع لا تتسول! يا لهذا الاستخفاف بالعقول! لم لا تجد عملًا حقيقيًا بدلًا من التسول المقنَّع هذا؟ لعلها ابنة لرجل أحمق رفض أن يعلمها. لا بُدَّ أن يدفع الناس ثمن غبائهم. ثم أليس من العيب أيضًا أن تقضي امرأة ليلها بالكامل حتى الصباح الباكر في الطريق هكذا؟ أليس من المحتمل أن تكون تلك المرأة..».

قاطعه حَجَرٌ آخر. وهذه المرة كانت السقطة أعنف، فجُرحَت رأسه وسال دمه ليختلط بالتراب فوق جبهته. صرخ الرجل صرخَةً تحمل من الغيظ أضعاف ما تحمل من الألم. نهض وهو يمسح الدم وينظر إلى كفه في رعب. لعن الشيخ والمرأة والأحجار والطريق واليوم، ثم قام ليسرع في عودته لينهي ساعة النحس تلك.

لم يكن قد سار أكثر من بضع خطوات عندما أدرك سَمْعَهُ صوت بكاء رضيع. نظر في اتجاه الصوت ليجد قطعة من القماش ملقاة بجانب أحد المباني، تَلُف جسدًا ضئيلًا حديثَ العهد بالدنيا يموجُ بالحركة والصراخ.

هتف السيد (وَاثِق) بصوتٍ عالٍ هذه المرة: «طبعًا! تلك هي النتيجة الحتمية لما نراه. صعاليك يمشون في شوارعنا ونساء لا أخلاق لَهُنَّ يسهرون طيلة الليل. ما

فائدة الشرطة إن لم تحفظ المجتمع من تلك الحيوانات؟ أين النظام؟ كيف يسكتون على هذه الفضائح المخزية؟ لا بُدّ أن هذا المولود سيكبر ليصير شحاذًا منحرفًا أو امرأةً ساقطة. أين ذهبت الأخلاق؟ أين ذهبت الأخلاق؟»

***

الرجل عظيم المظهر اسمه السيد (وَاثِق). وبالرغم من أنه من النادر رؤيته ماشيًا على قدميه، إلا أنه كان الآن يمشي مسرعًا إلى بيته، متجاوزًا الرضيع وصراخه، ماضيًا في طريقه النظيف الممهد الذي خلا تمامًا من الأحجار.

هل هو شكٌّ زائد، أم أن صاحب هذه الخطوات يجتهد فعلًا ليلحق بي؟

خطوات متسارعة متوترة يُصِرُّ صاحبها على أن يظل خلفي تمامًا. من الواضح أنه لم يألف السير بالسرعة التي أسير أنا بها وإلا لصارت خطواته أهدأ وأكثر انتظامًا. طمأنتني تلك الخاطرة قليلًا، فمَن يُضمر شرًا يتحرك دائمًا بخفوتٍ وإحكام.

أزيد من سرعتي بشكلٍ واضح. أنْصت إلى أصوات محاولاته الجاهدة في اللحاق بي. لعله طفل يلهو؟ أبهذا الإصرار والترصُّد يلهو الأطفال؟ أزيد من سرعتي أكثر فيبتعد صوت الخطوات قليلًا قبل أن يعود ليقترب. أسمع لهاثًا مكتومًا. أفكر في النظر إلى الخلف لكن هاتفًا يأمرني ألا أفعل. يخبرني بأنه «لا نظر للخلف في قواعد اللعبة»! أصار الأمرُ لعبة؟

أنحرف إلى اليسار بشكلٍ مفاجئ فألمحُ – قبل أن يسرع بالانحراف مثلي – شبحًا أقصر مني وأصغر حجمًا. أطمئن أكثر، وأقلل من سرعتي قليلًا لأسمح له بالتقاط أنفاسه. يقترب مني أكثر. أكاد أشعر بحرارته. أبتسم ابتسامةً أعلم أنه لن يراها.

أصل إلى أول الشارع الذي فيه البيت، فأتجه يمينًا وأترقب. يتبعني. أتساءل: «متي تنتهي اللعبة؟».

أصل إلى مدخل البيت، فتفترق خطواتنا أخيرًا. أخبِر هاتفي الآمر أن اللعبة انتهت، وأنظر إلى الوراء.

ألمح - وهي مستمرة في السير - جَانِبَ وجهها، الذي زادته جمالًا ابتسامتها التي كانت تعلم أنني سأراها.

تكاد أصابعي تتجمد من البرودة، فأتساءل عن السبب الذي يجعلهم يُحِبُّون الشتاء كل هذا الحب!

أوقفتُ سيارتي قريبًا من البيت، ثلاث دقائق لا أكثر. وها أنا أوشك على الموت بردًا فور خروجي من السيارة. ثم هذا المطر. كنت أظن أن معطفي الجلدي الطويل سوف يحميني منه، لكنني الآن مبتل تمامًا. لماذا يبيعونه بهذا الثمن إذن؟! لكن الحق يُقال، لم أشهد أمطارًا كهذه منذ... لا أذكر. لم أعد أذكر.

أقتربُ من البيت فأراه. برغم الشلال المنهمر على نظارتي أرى حدوده فأعرفه. جارنا الغريب هذا. لا أحد يعلم ماذا يعمل بالضبط. لا أحد يعلم عنه شيئًا على وجه اليقين باستثناء عودته المتأخرة كل يوم تقريبًا. وإن كان التأخر هكذا مفهومًا في ليالي الصيف، فلماذا يتأخر أكثر في الشتاء؟ لا أظنه رجلًا مهمًا فأنا أعرفهم من نظرة واحدة، ولا يبدو على الإطلاق من أصحاب الأعمال. فما الذي يشغله هكذا كل يوم؟ لا أحد من السكان يعرف. أما أنا فلا أعرف حتى نغمة صوته. قرر الجميع تجاهله كأنه اتفاق غير مُعلَن. اعتبرناه نبتةً من نباتات الظل التي نُزين بها مدخل البناية.

أراقبُ الآن الطريقة العجيبة التي يمشي بها. ليست هي المرة الأولى التي أراه يمشي هكذا. كأنه يرقص. المجنون! هو لا يتوقع أن يراه أحد. فلماذا يخطو بهذا الشكل؟ خطوةٌ هنا وخطوةٌ هناك بعيدًا. كأنه يتفادى بُقعًا من الماء لا وجود لها، فالمدخل مرصوفٌ ببلاطٍ جيدٍ مستوٍ. ينظر إلى موضع خطوته القادمة بتمهُّل، ثم يقفز. لم يكن ينقصني جنونه في هذه الليلة السوداء. أنتظر بعيدًا حتى ينتهي من عرضه السخيف هذا.

يصل إلى الباب، فيولج مفتاحه ويدخل ويترك الباب خلفه مواربًا. يا للمصيبة! هل يترك الباب هكذا كل يوم؟ أفي هذه الساعة؟ لعله رآني فترك الباب مفتوحًا؟ لا أعرف. لا أظن أنه يرى شيئًا غير الأرض.

أسير إلى الباب بسرعة. أسمع صوتًا غريبًا تحت حذائي. كأنها بيضة صغيرة تتهشم. أرفع قدمي وأنظر. يا للبشاعة! لقد دهستُ واحدًا من تلك المخلوقات اللزجة. تهشمت صَدَفته تمامًا تحت حذائي الثقيل المقاوم للمياه. أنظر أمام قدمي فأجد مخلوقًا آخر، وآخر، وآخر. مدخل البناية مزدحم بهم. اللعنة! هم أيضًا يحبون الأمطار؟ لا يهم. لن أنام قبل أن أنظف الحذاء جيدًا.

أصل إلى الشارع البائس الذي لا أحبه ولا أظن أن هناك من يحبه. آتي لأن صديقًا يسكن هنا. لا أصعد. أنتظره أمام السور الحجري الشاحب ككل شيء حولي. الشارع كأنه غيمة من دخان وغبار خرجت من مدخنة مصنع عجوز. حتى بشرتي أنا تأخذ الآن نفس لون الشجرة الوحيدة، رمادية الفروع والأوراق. ما تبقى من الأوراق.

أصواتٌ بعيدة لجسم معدني يضرب آخر بانتظام. أمام السور ترتمي أشلاء السيارات الممزقة: نوافذ فقدت زجاجها. أبواب لم تعد تُفتح أو تُغلق. نصفٌ أمامي كامل لسيارة ماتت يومًا وهي تعبر الطريق. أحاول الهرب ببصري بعيدًا نحو السماء فأجد الليل بلون أسفلت الطريق ورائحته. ينقلب إليَّ البصر خاسئًا.

شبح يقترب ببطءٍ شديدٍ. يحمل شيئًا فوق ظهره كحقيبة ظهر عملاقة تتطاول فوق رأسه المُطرِقة إلى الأرض. أحد جامعي القمامة فيما يبدو. القامة منحنية من وطأة الحِمل. ما تبقى من جسده يشي بأنه تجاوز الستين، ربما السبعين. يسرع المشي قليلًا إذ رآني. هل سيأتي إليّ؟ يا الله! لا أستطيع تحمل تلك المواقف. سيأتي ليقف أمامي قليلًا

ويشكو بعينيه، وربما يبسط كفه حتى أمد يدي بالعطاء أو أنهره. يا رب جنّبني أن أنهره.

يقترب مني بالفعل. لا يبطئ. أحاول اجتناب تقابل أعيننا. لا صوت لخطواته. الصوت الأول يمزّق الصمت وروحي. «سلامٌ عليكم». بصوت لم يطرق أذنيّ مثله منذ وقت بعيد. صوت جدتي المنهك الرائق وهي تستقبل الموت. بعينٍ ذاهلةٍ أنظر في عينيها. يروعني صفاء زرقتهما وسط غابة الخطوط في وجهها الناصع.

أرُد السلام بصوت مذبوح، وهي تتجاوزني ببطء إلى الشجرة الوحيدة، خضراء الفروع والأوراق.

«عيون الأطفال لا تضحك تحت الأسقف».

هكذا أفكر وأنا أجول بينهم في فناء المدرسة. أتنفس صخبهم. عصافير لا تتوقف لحظة عن الرفرفة والشقشقة. يَجْرون أمامي في كل اتجاه وهم ينثرون ضحكاتهم التي تقع على الرمل فيتحول تدريجيًا من لون الرماد إلى لون الذهب. أين كانت الشمس قبل أن يهبطوا للفناء للاستراحة؟ أتلك استراحة؟ استراحة من أي شيء؟

حبة لقاح ذات أجنحة بيضاء تهبط وسط حبات الرمال. من أين جاءت؟ وكيف؟ ولماذا هبطت هنا؟

تتوقف البنت عن الجري أمامي بالضبط. تنظر في وجهي بابتسامة لها رائحة العسل، وبعينين ضيَّقَتْهُما اتقاءً للشمس. تسألني بلا تردد: «أنت تدرِّس لأختي؟»

أجيبها بسؤال: «أختك في أي صف؟»

تتحرك إلى اليمين قليلًا لتحتمي بظلي الممتد على الأرض. تبسط أمامي أصابع كفيها إلا اثنين. أخبرها وأنا أثني لها إصبعًا ثالثًا: أدرِّس للصف السابع».

تُحوِّل نظرها عن وجهي وتقول شاردة: «آتيك لما تكبر».

هواء بارد يَهبّ، وهي تستدير لتواصل الجري، لتتركني أتابع بنظري حبة اللقاح التي رفعها الهواء من فوق الأرض، لتطير متجاوزة سور المدرسة المنخفض.

أسير متجاوزًا الميدان الكبير ومصابيحه الكثيرة المتناثرة التي تبعث تلك الإضاءة الصفراء الصناعية. أفكر في ليل المُدُن، كيف سيبدو بعد انقراض تلك المصابيح يومًا ما؟ هل ستنشر المصابيح البديلة ضوءًا أبيضًا يحاكي نور النهار؟ أم ستكون للإضاءة المستقبلية صبغة زرقاء معدنية؟

مصبوغًا بتلك الصُفرة يقف الفتى الآتي من قريته ليكون شرطي المرور. هل رأيته من قبل؟ أم إنهم يتشابهون جميعًا بأجسامهم النحيلة ووجوههم الممصوصة وشواربهم التي تخجل من الإعلان عن وجودها بوضوح؟

بائع الفول الذي يمشي هناك يشبههم أيضًا. يحمل بشِماله أكياس الفول الصغيرة، ويرفع بيمينه الجرس الكبير الذي لا يحرِّكه سوى ارتجافات جسد حامله. عجبت لمّا رأيته لا يهز جرسه، فهو لا يرفع صوته بالنداء كالمعتاد. كيف سيدرك الناس مروره؟

توقَّفتُ قليلًا لأبحث في جيبي، فوجدته يتجاوزني ويلقي عليّ السلام بصوت خفيض. لم يتوقف. أناديه: «انتظر يا عمّ! أين تذهب؟ أعطني بجنيهين».

تنبسط شفتاه في ابتسامة واهنة لم تشارك فيها عيناه. يمد يده بالفول قائلًا:

- «لا تؤاخذني يا بيه. الضابط أوقفنا، أخذ أخي لأنه اشتبه به».

- «لماذا؟» أسأله وأنا أبطيء في سيري لنسير كتفًا بكتف، كصديقين.

- «لا أعرف يا بيه. أخي هذا يخاف عندما يرى عَرَبَه إزالة. فما بالك بضابط بنجمتين؟ نحن أصلًا لا نَسرَح هنا. سَرْحَتنا بعد شارعين. أنا قلت أدخل هنا لأني خِفْت».

- «لا تَخَف، سيتْرُك أخاك.» وأضيف والغضب ينشر شجاعةً حمقاء! في دمي: «أنا أسكن آخر الشارع. عندما يحدث لكما شيء كهذا اصعد وأخبرني. أنا أعرف كيفية التصرف مع هؤلاء».

يُشرق وجهه كأنما رأى أخاه قد عاد بالفعل، ويتمتم بكلام لا أسمعه. أُلقِي عليه السلام وأمضي في طريقي أفكر فيما وعدته به. هل أستطيع حمايته فعلًا إن لجأ إليّ؟ ليتني أعرف حقًا!

أقترب من مدخل البيت. أتوقف قليلًا لأبحث في جيبي. تَخْرج يدي بالمفاتيح التي أحدثت رنينًا خافتًا، غطَّى عليه تمامًا رنين الجرس الكبير في يد البائع، ونداؤه العالي الذي انطلق يمزِّق ظلام الشارع الخالي تمامًا من المصابيح ذات الإضاءة الصفراء الصناعية.

هذه المرة قررتُ أن أتغير فعلًا. فالأحداث الكبرى العامة تُغيِّر من شخصية الإنسان بلا شك. وإن لم يتغير الواحد منَّا بعد أحداث كهذه فمتى يفعل؟ أقول: «هذه المرة قررتُ أن أتغير فعلًا. وها أنا الآن أكسر مدار يومي الثابت فأخرج من مقر عملي لا إلى مقر إقامتي بل إلى البحر».

منذ سنوات وأنا أحلم بأن تكون هذه التمشية فقرةً دائمةً في اليوم. فأنا أحب البحر، ليس كما يحبه الناس، فالكل يقول إنه يحب البحر، لكنني أحب البحر فعلًا. فأنا أحب الجلوس أمامه والسباحة فيه وأحلم دائمًا بتملُّك شقة كبيرة في طابقٍ عالٍ ترى البحر مباشرةً. بل أحبه إلى درجة أنني أتلذذ بأكل كل أنواع السمك تقريبًا. لكن إن سألتَني عن أكثر ما أحبه فيه أجبتُكَ بلا تردد:

«أحب اتساعه الهائل ورحابته اللامحدودة. وأذكر أن أحدهم قال إن كلمة (بحر) هي مقلوب كلمة (رَحب)، وهي ملاحظة ذكية أعجبتني».

أقول:

«أحب البحر فعلًا، لكنني رجل متزن وأعلم أن لكل شيء عيوبه، ومن أكبر عيوب البحر ذلك الرذاذ الذي بدأ يستقر على زجاج نظارتي. ألا يستطيع البحر أن يدعني أتمشى بقربه دون أن يرشَّ نظارتي ووجهي كله بتلك القُطَيرات المالحة التي لا يستطيع المرء إزالتها تمامًا إلا بالغسل؟!»

لكن، مهلًا! ها هو العيب الأكبر. فأنا الآن أرى بوضوح - رغم أنني لم أغسل النظارة، فحتى غسلها عبث مع توافُد الرذاذ بلا انقطاع - شابًا وفتاة يجلسان في تقارب مُريب على إحدى تلك الكُتل الخرسانية الضخمة التي وُضعت في الأصل لردّ أمواج البحر، فصارت - فيما يبدو - ملاذًا لأفواج العُشَّاق! أتعرف؟ إن أكبر المشاكل التي تواجه قرارك بتغيير نفسك هي أن الناس لا تتغير معك! ماذا ينتظر هؤلاء حتى يُدركوا خَوَاء عقولهم ووضاعة سلوكهم؟ يبدو أن تلك الأحداث الكبيرة لا تُغيِّر صغار الناس.

لكنني قلت إنني سوف أتغير. وأول هذا التغيير أن أكون أكثر إيجابيةً في تغيير الآخرين. أتلكَّأ في مشيتي لأحدجهما - لعلهما يخجلان قليلًا - بنظرة ساخطة فلا

يشعران. أظن أنهما لم ينتبها لوجودي، بل لوجود أي شيء سواهما، لأنه أخذ يقترب منها أكثر - كأنما ليغيظني فقط - ليحيط خصرها بذراعه.

أتوقف خلفهما تمامًا وأتنحنح بصوتٍ مسموع، لكنهما يظلان في غيابهما التام عن العالم، بل أراه يميل بجسده كله إليها كأنه يهمّ باحتضانها. أشعر بالحرارة تسري في عروقي وأنا أراه يحتضنها بالفعل. هل وصل الناس إلى هذه الدرجة من الانحطاط؟ لكنهما لا يندمجان في العناق، بل أراه يحاول - دون أن يتخلى عن احتضانها - أن يساعدها لتنهض واقفة، بينما لا تزال هي عاقدةً ذراعيها حول عنقه باستماتة عجيبة كأنها ستسقط في هاويةٍ ما إذا تخاذلَت لحظةً في تشبثها هذا! لحظات تمرُّ يُخيَّل فيها إليَّ أنَّ كل عضلة في جسديهما ترتعش في انقباض، رغم انبساط ملامح وجهيهما. لحظات قبل أن يقوما واقفين، ثم ينحني هو - ويُمناه مُحيطة بخصرها بإحكام - حتى تصل أنامل يُسراه إلى موضع قدميها كأنه يريد أن يلتقط شيئًا قد نسياه هناك.

موجة عارمة تلطم - بلا سابق إنذار - وجه الصخرة التي يقفان عليها بالذات. يتداخل صوت انهمار المياه مع صهيل ضحكهما الوحشي. يضحكان وهو يُثبِّت تلك العُكَّازة المعدنية تحت ذراعها الأيمن. يضحكان وقد ابتلت ملابسهما تمامًا حتى التفَّ

ثوبها محتضنًا ساقها اليسرى الوحيدة. يضحكان ويتركاني لشظايا الموجة تتكاثف فوق زجاج نظارتي الذي أمسى مُعتمًا بالكامل. صرتُ لا أراهما، لا أرى البحر، لا أرى شيئًا.

كان من الغريب أن أنظر – في هذه المرة بالذات – إلى زِرِّ «المسافة» الطويل على لوحة أزرار الحاسب قبل أن أهوي عليه بأصابع يُمناي، لذا حمدتُ الله أنني استطعتُ إيقاف يدِي قبل الهبوط، حينما وقع بصري على تلك النملة الصغيرة السوداء التي كانت تتحسَّس طريقها فوق ذلك الزر.

لا أعرف إذا ما كانت قد شعرتْ برؤيتي أم لا، لكنني لاحظتُ أنها انطلقتْ في نفس اللحظة لتتوارى تحت الأزرار.

«لو كنتُ مكانكِ ما اختبأتُ هنا. فرُبَّما انسحق جسدكِ الضئيل مع حركة هذا الزر أو ذاك إذا قرَّرتُ كتابة كلمة كنتِ تختفين تحت أحد حروفها. لو كنتُ مكانكِ لغادرتُ متاهة الحروف الخطيرة هذه على الفور».

قلتُ لها ذلك بصوتٍ مسموع، ثم انتظرتُ حتى وجدتها تَعبُر في سرعةٍ خاطفة بين حرفَي السين والشين، ثم تختفي بُرهة قبل أن تظهر بعيدًا فوق حرف الكاف، ثم تعود إلى الاختفاء بنفس السرعة.

طال انتظاري لخروجها لكنها لم تظهر مرة أخرى. فكرتُ في السبب الذي جاء بها إلى هنا. هل ضلَّت الطريق؟ هل جذبَتها روائح لأشياء لا أراها تسكن العالَم المنسي تحت الأزرار؟

لا أعرف عن ذلك العالم غير وجود نملة صغيرة سوداء في خطر هناك، ولا أعرف طريقة لمساعدتها إلا أن أترك الكتابة الآن وأعود إليها في الصباح.

***

في الفجر تبسَّمتُ ضاحكًا وأنا أرى حبة السكر الصغيرة فوق حرف الراء، وتعجَّبتُ - وهي تذوب سريعًا فوق لساني - كيف تحوي حبة سكر واحدة كل هذه الحلاوة.

أظُن أنه كان الثلث الأخير من الليل حينما وجدتُ نفسي أمام ذلك المسجد القائم وحده في ظلام الصحراء المحتضِر. وكان المشهد كله غارقًا في الزُّرقة الداكنة، لكنني تبيَّنتُ المعالم الخارجية لمئذنة وحيدة شاهقة، بَدَت لي - في هذه العتمة - كأنها تصعد في السماء بلا نهاية.

وكانت الأنغام المتقطعة المبهمة - التي كانت تشبه ابتهالات الفجر - آتيةً من مكان بعيد، وبدا كأن الهواء يحملها من أطراف الصحراء إلى حَرَم المسجد.

وعندما انتبهتُ إلى تلك الأصوات الخفيضة عند المدخل، أبصرتُ الشبح الخارج من المسجد، وشعرت أنني أعرفه جيدًا. وعندما اقتربتُ أكثر شهقتُ في دهشة: «أنت؟!»

كانت عيناه محجوبتين خلف زجاج نظارته العاكس، وكان وجهه مائلًا عني بزاوية صغيرة، فلم أكن أعرف يقينًا إن كان ينظر إليَّ أم لا.

«كيف أراكَ هكذا؟ ألم.. أعني.. أما زلتَ حيًا يا سيِّدي؟»

تنفرج شفتاه قليلًا – دون كلمة واحدة – لترتسم فوقهما ابتسامته الهادئة الحَيِيَّة التي عرفتُها في أكثر صُوَرِه.

«لا أعرف إن كان هذا حُلمًا، لكنني سعيد جدًا برؤيتك. أنا أحبك حقًا، وأفهمك تمامًا. لم أنتهِ بعد من القراءة لكنني أعرف ما كنتَ ترمي إليه. لكن..»

وقطعتُ كلامي عندما رأيته يلتفت – بجسده كله – نحو الشبح الآخر الذي كان يتقدم ببطء – وبعرج خفيف – في اتجاه المسجد.

«سيِّدي. أرجو أن تتكلم. أنت تعرف ما أتحدث عنه، أليس كذلك؟ لماذا لا ترد؟ ألستَ (نجيب محفوظ)؟!»

وكانت الأنغام المتقطعة المبهمة – التي كانت تشبه أذان الفجر – آتيةً من المجهول عندما اتضحَت لي – على ضوء أول قطرات من النور – ملامح (نجيب محفوظ) الآخر الذي كان يخطو نحو المدخل، ناظرًا نحو المئذنة الوحيدة الشاهقة التي أصبح من الواضح أنها تصعد – بالفعل – في السماء بلا نهاية.

كأنما يعرف المكان جيدًا، وَجَدْتُه يخطو بأناةٍ وثقة إلى رفوف كتب الخط العربي. شيخ بملامح مُحيِّرة، لا شرقية ولا غربية. عيناه اختلط فيهما البُني بالأخضر. لِحْيَته القصيرة اختلط فيها الفضي بالأشقر. ينظر إليَّ بابتسامة رصينة ويحرك شفتيه، فأقرأ بلا صوت: «سلامٌ عليكم».

أقوم من جلستي وأتوجه إليه. أبدأ حديثي -على سبيل الاحتياط- بالإنجليزية: «صباح الخير. هل أستطيع مساعدتك؟ هل تبحث عن كتاب مُعَيَّن؟».

يبادر إلى مصافحتي بكف كبيرة دافئة، ويرد بابتسامة وبإنجليزية لها لكنة ما: «سلامٌ عليكم. أنا.. أنظر.. كتب.. خط..».

يقول «خط» وهو يحرك يُمناه في الهواء برشاقة. «أنا.. أستاذ.. تاريخ..»، يقول «تاريخ» وهو يحرك يسراه إلى الخلف ببطء. «أنا.. أكتب.. خط.. خطاط.. معروف.. تركيا.. معروف.. جدًا..».

تُركيّ. بالطبع! كيف لم أفكر في ذلك؟ أبتسم وأومئ له مُشجعًا فيُواصل: «كتبت.. بسملة.. جميلة.. معروفة..»، ينطق «بسملة» بالنطق التركي الذي يكسر كل

الحروف تقريبًا. يشير إلى كتب الخط العربي ويسألني وهو يحاول ألا تنطفئ ابتسامته: «كتبي.. ليست.. هنا...؟»

أبتسم ابتسامةً معتذرة وأهز رأسي نفيًا. «ليس عندنا كل كتب الخط العربي بالتأكيد. للأسف».

يُخرج من جيبه قلمًا وورقةً ويكتب شيئًا بأصابع مرتجفة قليلًا. يناولني الورقة فأقرأ أمامه: «ساهيـ..» يقاطعني مُصححًا: «شاهين.. شاهين أوتشار.. اسمي.. هذا.. موقع.. إنترنت.. معروف.. تركيا.. بسملة.. هناك..»

أهز رأسي. «تدخل.. على.. إنترنت؟ بسملة.. جميلة.. يعجبك.. أكيد..».

«أكيد»، أبتسم مُجاملًا. يتردد قليلًا قبل أن يسألني: «تريد.. صورة.. معي؟». أشكره بارتباك.

لحظات من الصمت. ينظر إلى السقف ويغمغم شيئًا ما بالتركية، قبل أن يعود ليقول بإنجليزيته التركية: «الجو.. باردٌ.. هنا.. بارد.. جدًا..». يُحكم معطفه حول جسده، ويمد كفًا باردة ليصافحني. «شكرًا.. سأذهب.. سأغادر..».

ينظر إليَّ مرةً أخيرة قبل أن يغادر. لم أفهم تمامًا تعبير وجهه في تلك اللحظة، لكنني كنتُ أرى خليط الألوان في عينيه ولحيته يتسرَّب. يتبخَّر البُني والأخضر والفضي والأشقر، ولا يبقى إلا لونُ الرماد.

لم أكن أعرف اسمه الحقيقي، ولم أكن أعرف السبب الذي يجعل الجميع هنا يُسمُّونه «أبو تريكة». لا أعرف الكثير عن لاعبي الكرة الآن، لكن مَن في مصر لا يعرف «أبو تريكة»؟ لهذا كنتُ دائمًا أتعجب. أين وجه الشبه بين «أبو تريكة» وبين ذلك الشاب الأسواني الأسمر بطوله الفارع وجسده الضخم وملامحه الكبيرة؟

يأتي «أبو تريكة» في التاسعة والنصف من صباح كل يوم، دافعًا أمامه تلك العربة الصغيرة التي تحمل الممسحة وسوائل التنظيف. ما إن يدخل من الباب حتى يستقبله زميلي في المكتب المقابل بنبرته العالية الساخرة: «إيه يا أبو تريكة؟». لا يُرد، لكنه يبتسم دائمًا نفس الابتسامة – بنفس الخجل – وهو يمسح مكتب زميلي كالمعتاد. وكالمعتاد يسألني بصوتٍ لا يكاد يُسمَع: «المكتب يا أستاذ؟» وكالمعتاد أهز رأسي وأشكره، لأنني أمسح مكتبي بنفسي عند الحاجة، ولأنني أستحي أن ينحني هذا العملاق الخجول ليمسح المكتب وأنا جالس على المقعد الجلدي المريح، أشاهده ولا أتحرك. هناك شيءٌ ما خطأ في هذا الموقف كله، كما أن هناك شيء ما خطأ في ذلك الزي الموحَّد الذي اختاره أحدهم لعمال النظافة في المكان. ذلك القميص الأخضر

الخفيف قصير الكمين. نحن في الصيف، نعم. لكن تكييف الهواء هنا يجعلنا نرتدي ملابسنا الشتوية في قلب الصيف. ربما هذا البرد هو سبب صوته الخفيض دائمًا؟ ذات مرة اقترح زميلي عليه أن يرتدي شيئًا ثقيلًا فوق ذلك القميص، لنكتشف حينها أنه «ممنوع يا أستاذ».

اليوم قابلتُ «أبو تريكة» في المصعد عند موعد الانصراف. ابتسم بخجله المعتاد وهو يُحكم معطفًا باليًا حول جسده. وبدا لي أنه لاحظ دهشتي من مظهره، لأنه غمغم بشيء من الاعتذار: «ألبسه بعد الشغل. الجو باردٌ هنا. بارد جدًا».

خرجنا من المصعد معًا لكنه سبقني بخطوات، بحكم قامته، وبحكم خجله ربما. لهذا رأيته وهو يخرج من البوابة الزجاجية الكبيرة. كانت خطواته تتسع وهو يخطو خارجًا، وكانت قامته تعتدل بالتدريج، وكان يخلع معطفه وهو مستمر في السير، وابتسمتُ عندما رأيت القميص الذي كان يرتديه تحت المعطف. القميص الذي أعرف شكله بالرغم من أنني لا أعرف الكثير عن لاعبي الكرة الآن. لكن مَن في مصر لا يعرف هذا القميص الأحمر، المكتوب على ظهره بالأبيض رقم ٢٢؟!

نعناع

أعواد نضرة من النعناع كانت ترقد في سلام فوق قطعة من القماش الأبيض.

- «حلو النعناع ده يا أمي».

- «خد شوية معاك».

- «عندِك كيس ولا ممكن يتخنقوا؟»، أقولها ضاحكًا.

- «لا مش حيتخنقوا. الكيس عندك.»، تجيب في جدية.

لا أحب الشاي بالنعناع، وأعرف أن كثيرًا ممن يقولون إنهم يحبونه لا يفعلون في الحقيقة. الشاي بالنعناع عندي مثل «فنجان القهوة في الصباح» و«فيروز» و«زياد الرحباني» و«منير» و«محمود درويش» و«جيفارا»: هي أشياء قد لا تحبها، لكنك تخجل من نفسك عندما تعرف أن كل المثقفين مرهفي المشاعر يهيمون بها حبًا، فتحاول أن تحبها في صمت. لكن زوجتي تحب الشاي بالنعناع، وهو ما جعلني - بعد التدقيق - أستثنيه من القائمة السابقة، بل أحاول أن أحبه أنا الآخر في صمت.

- «شفتي جبت إيه؟».

- «الله! نعناع؟»

- «صاحي وبيلعب!»

- «طب حُطُّه في مَيَّة».

- «ليه عطشان؟»، أقولها مازحًا.

- «أكيد.»، تجيب في شرود.

نشرب الشاي بالنعناع كل يوم. تضع زوجتي أولًا الأعواد التي بدأت في الذبول. أبدأ في استحسان المذاق - ثمة سر في النعناع الذابل؟ - إلى درجة أنني ألاحظ غياب أعواد النعناع من كوب الشاي في اليومين الأخيرين. أنظر إلى مكان الكوب الذي وضعَتْ به زوجتي أعواد النعناع فلا أجده.

- «هو النعناع خلص؟»

- «لا..»، تجيب في تردد.

- «بطّلتي تحبيه يعني؟»

- «بالعكس.. بس مش ححطه في الشاي تاني».

- «ليه بس كده؟ ده أنا كنت بدأت أحبه أنا كمان.».

- «طب تعالَى». تقودني من يدي إلى الشرفة.

أرى الكوب الزجاجي فوق السور، يتعانق فيه آخر عودين بقيا من النعناع. في قمتيهما - فوق الأوراق الآخذة في الذبول - أرى وريقات خضراء وليدة، مطوية في اتجاه الشمس، وفي أسفلهما أرى - بعد التدقيق - خيوطًا بيضاء متشعبة، تسبح في الماء الذي كان يعكس نور الصباح على الجدار بألف لون.

كان المطر قد انتهى للتوّ عندما نزلتُ لأشتري أي شيء ساخن يصلح للغداء الذي تأخر بسبب سوء الأحوال الجوية. في العادة أحب الخروج في البرد والمطر، لكنني في ذلك اليوم بالذات لم أكن مستعدًا لكل تلك الغيوم التي كانت تطبق على روحي قبل أن تطبق على المدينة. توقفتُ عند أول مطعم. لم أكن في حالة تسمح لي بترف الاختيار. في العادة كنت لأحب الاستمتاع بالشاورما الساخنة في مثل هذا الجو، لكن حالتي النفسية وحالة الشاورما التي يقدمها ذلك المطعم دعمتا معًا اتخاذ القرار الحكيم دائمًا في مطاعم الفول:

«سأشتري شطائر الفول، فقط».

كان المطعم خاليًا عندما دخلتُ، لكن تلك العجوز دخلتْ بعدي بلحظات. ولم أكن قد اتخذتُ قراري الحكيم حين نظرتْ لي بابتسامة خجولة كأنها تعتذر. «اتفضلي يا حَاجَّة. اطلبي أنتِ أولًا». بنفس الابتسامة المترددة ذهبتْ تنظر إلى البائع خلف الواجهة الزجاجية.

- «بكم الكشري بالكبدة والنبي يا ابني؟».

- «سبعة جنيه».

- «سبعة جنيه؟ والكشري العادي الصغير يا ابني؟».

- «ثلاثة جنيه».

- «طيب. ممكن واحد فول؟».

- «واحد فول؟».

- «خليه بالسجق..»، قالتها بتودُّد زائد.

ناولها البائع شطيرتها الوحيدة ملفوفة في ورقة، فتناولَتْها بكلتي يديها. التفتتْ لي وقالت: «شكرًا يا ابني»، ثم خرجتْ. طلبتُ أربع شطائر فول - بلا سجق بالطبع - ثم خرجتُ. رأيتها تبتعد بخطوات واهنة ثم مشيتُ راجعًا، في الاتجاه المعاكس.

إذا أردتَ أن ترى لمحة من مستقبل مدينتي هذه، فاذهب إلى أقرب محطة للترام. سيارة الأجرة تخبرك بالثقافة الشعبية، والحافلة تخبرك بمستوى الرضا عن الحياة. القطار يخبرك بأخلاق الناس، والميكروباص يخبرك –بوقاحة- بكل تفاصيل الواقع. لكن المستقبل لا يخبرك به إلا الترام العجوز.

كنتُ قد ضِقتُ بشوارع المدينة وضاقت بي، حين قررتُ أن أستبدل الترام بكل وسائل المواصلات الأخرى. الترام العزيز الذي لا يعطله الزحام ولا يعوقه المطر. الترام القديم الذي ما زال يتهادى في طريقه عبر كل تلك المحطات. هذه العربة بالذات ربما رأت وجه جَدِّي في شبابه، كما ترى الآن وجوه تلك الشياطين الصغيرة التي لا تكف عن التقافز والصراخ. متى أصبح أطفال المدارس هكذا بالضبط؟ لا أعرف لأنني لم أكن من ركاب الترام حين بدأ الوباء. شيءٌ ما في نظرات الأطفال تَغَيَّر بشكل جذري. شيءٌ يظهر كأوضح ما يكون حين تطفو تلك الابتسامة الغائبة فوق ملامحهم الباهتة. هل رأيتَ من قبل ضبعًا يبتسم؟ بالطبع قد رأيت، فالضباع قد خُلقت بتلك الابتسامات المحفورة على وجوهها لا تفارقها. ويبدو أن الوضع لا

يختلف كثيرًا عند تلك الضباع البشرية الضئيلة. لماذا يفضلون الترام؟ بالطبع لنفس السبب الذي تفضل من أجله الضباع التسكع قرب قطعان آكلات العشب؛ البحث عن لقمة سهلة. في الترام يتاح لهم الوقوف، والتجمع، والحركة، والتنقل، والأهم؛ انتقاء الضحايا، ودراستها، ومراقبتها، وجهًا لوجه. في العادة يختارون الركاب الوحيدين الذين لا تبدو عليهم علامات القدرة على الدفاع عن أنفسهم. وبالطبع يتناسب حجم الهجوم مع حجم عجز الفريسة عن الدفاع. فالطلاب الأجانب مثلًا (أصحاب الملامح الآسيوية بالذات) أهداف ممتعة للغاية، لكنهم قد يأتون بردود أفعال غير متوقعة، لذا يكتفون في الهجوم عليهم - في الغالب - بالنظرات والغمزات، لكن الضحايا لا يملكون دائمًا نفس حُسن الحظ.

لن أستطيع أبدًا نسيان ذلك اليوم. كنتُ في العربة الوسطى حين سمعت الصياح في العربة الأخيرة. كان الترام قد وصل إلى محطته الأخيرة - محطة الرمل - وكان الرُّكاب متحلِّقين حول باب العربة. على رصيف المحطة - أمام باب العربة تمامًا - تكوَّم رجل وامرأة في سن أبي وأمي تقريبًا. السيدة بالذات كان لها هيئة أمي من بعيد. كان الزوجان يحاولان النهوض وسط حلقة المشاهدين، وبدا أن محصل التذاكر ذو

النظارة والشارب الكثيف - والملامح التي أعرفها جيدًا ولا أعرف السبب - هو الوحيد الذي كان يفعل شيئًا ما. على يمينه وقف زميلان له - بنفس الزي الأزرق المميز - يراقبان ما يحدث، وأمامه وقف الأولاد يستقبلون صياحه ببرودهم التام.

- «مين اللي زقّهم كده؟»، صرخ فيهم المحصل وهو يمسك واحدًا منهم من ياقة قميصه.

- «والله ما نعرف. إحنا مالنا يا عم؟»، أجابه الولد بخشونة.

- «سيبهم يا جابر دي عيال ما اتربّتش. يلّا يا ابني انت وهو امشوا من هنا»، قالها أحد المحصلين.

لكن المحصل (جابر) لم يسمعه فيما يبدو، لأنه التفت ليساعد الزوجين على القيام وهو يسأل الزوج عن الفاعل.

- «معرفش مين فيهم. زقّونا من ضهرنا وإحنا نازلين. أنا ومراتي.»، قالها الزوج وهو ينفض التراب بيده عن ملابس زوجته التي كانت تجمع حبات عقدها المنثورة على الأرض وهي تتمتم باكية:

«قلت لك مش عايزه أروح السينما.. قلت لك مش عايزه».

النتيجة أن أحدًا لم يرَ مَن فعلها، أو رأى وآثر الصمت لأنهم عيال. لكنني حينها لم أكن أفعل أي شيء سوى مراقبة وجوههم. وكنت أرى شبح ابتسامة ظافرة كريهة في عيني ذلك الولد صاحب الوجه الشاحب الطويل. الابتسامة التي أخفاها عن عين المحصل (جابر)، لكن ليس عن عيني أنا.

فكرتُ للحظة أن أخبر المحصل الذي كاد أن يُخلي سبيل الأولاد. لكن بم سأخبره؟ لم يكن لديَّ دليل. لم يكن لديَّ وقت. لم يكن لديَّ ما يُقال. لم أشعر بنفسي إلا بعد أن وجَّهت لكمةً لفك الولد تألَمَتْ لها عظام كفي نفسها. لم أشعر بشيء إلا عندما بدأ الركاب بالتصايح، وبدأ المحصلون في المحطة بالتجمهر.

«ليه.. حرام.. عيال..».

كانت آخر الكلمات التي ميزتها في صياحهم قبل أن أتبادل نظرة خاطفة مع المحصل (جابر) ثم أنطلق بأقصى سرعتي في شوارع المدينة الرمادية أعرف أنهم سيعودون. أعرف أنهم قادمون لا محالة. لكنني سأكون في انتظارهم. أعرف أنني وحدي لكنني أعرف أن عم (جابر) سيحتاج إليَّ كما سأحتاج إليه. أعرف أن ما

سأفعله قد يجعلني مطلوبًا - ويا للسخرية - للعدالة! لكنني أعرف شيئًا ما عن العدالة الحقيقية، عدالة أن يشعر هؤلاء الشياطين بشيء من الخوف. أعرف أنهم سيبحثون عني لكن هذا هو بالضبط ما أريد. فليبحث من يشاء عن ذلك الراكب الأسطوري الذي يرتدي المعطف الأسود الطويل بغطاء الرأس الذي يخفي عينيه ونصف وجهه. فليبحث عني الولد ذو الوجه الشاحب الطويل والابتسامة الكريهة، الآن أو في اليوم الذي يصير فيه من عتاة مجرمي المدينة. كيف أعرف مستقبله؟ ألم أقل لك؟ إذا أردتَ أن ترى المستقبل فاذهب إلى أقرب محطة للترام، اذهب ولا تخشَ العيال. فهم يعرفون أن المحصل (جابر) يعرف وجه كل واحد منهم، كما يعرفون أنني أتنقل الآن بين عربات الترام، وأنتظرهم.

فهرس

طاغور السكندري من أي بهاء تولد أغنياته؟ ٢

حكايات بعد النوم ٨

الفراشات ٩

أصفر ١٠

ورد وياسمين ١٢

عقارب ١٤

ابن الحداد ١٧

السنجاب ٢٠

الحَبَّار ٢٤

الولد والبحر ٢٩

نجمة بحر ٣٢

الولد والخاتم ٣٥

ساكورا ٣٨

قصص صغيرة ٤٣

لافتات ٤٤

فترة.. ٤٥

فرصة... ٤٦

الثالثة.. ٤٧

قطاران ٤٨

إلى الجنوب ٤٩

لحظة.. ٥٠

لحظات ٥١

ليلة بُنّية.. ٥٢

سكتة ٥٣

قطرات ٥٤

بين الأمواج... ٥٥

على جانب الطريق ٥٦

حَجَر ٥٧

خطوات ٦١

خِفّة ٦٣

سلام ٦٥

حَبَّة... ٦٧

سارح... ٦٩

كتلة خرسانية ترى البحر................................ ٧٢

قالت نملة ٧٦

حديث الليل والفجر.................................. ٧٨

شاهين أوتشار ٨٠

أبو تريكة ٨٣

نعناع ٨٥

أوحال.. ٨٨

الوطواط.. ٩٠

فهرس ٩٥